كيف ستكون أولى حروب القرن الحادي والعشرين وما هدفها النهائي؟

أطلق الأمريكيون غير الرسميين، بلسان السي إن إن، وصف الحرب المقدسة على الحرب التي سبق للناطقين الرسميين أن نفوا عن كلام جورج بوش لدى وصفه إياها بالحملة الصليبية، ما تشير إليه الكلمة من معنى ديني تاريخي، وقالوا إنها اكتسبت في اللغة الدارجة معنى آخر يتصل بالعزم والحماسة.

ومن أسهل الأمور علينا أن نصدق أن الولايات المتحدة ليست في وارد أهداف دينية. لأن دين الولايات المتحدة الحقيقي هو الربح، الذي يطلقون عليه تسمية (المصالح الحيوية). وباسم تلك المصالح تجيز الولايات المتحدة لنفسها أن تلعب بأساطيلها في مياه الآخرين، وتلعب بطائراتها وصواريخها في أجواء الآخرين، وتلعب بأجهزة إعلامها في عقول الآخرين، وتلعب بدبلوماسيتها الاستخباراتية في أوساط الحكم والسياسة في دول الآخرين.

بل إن من السهل علينا أن نصدق أن الحروب الصليبية التاريخية نفسها لم تكن حروبا صليبية بالمعنى الديني. فقد كانت البواعث العميقة التي حركتها بواعث عنصرية غربية جاهلة في الغرب ضد الشرق، وبواعث استعمارية طامعة لدى الدول التي شجعت عليها، وبواعث شخصية خاصة لدى الأبناء غير الوارثين لملوك الغرب (وفقا لتقاليد الميراث لديهم) كي يوجدوا لأنفسهم ممالك في الشرق. وعدا عن مسألة البواعث التي تحدث عنها المحللون التاريخيون الغربيون بأنفسهم، فإن وقائع سير الحملات الصليبية من الغرب إلى الشرق حفلت عمليا بجرائم يندى لها الجبين ضد المسيحيين الشرقيين وكنائسهم وأرواحهم. وهي جرائم تكلم عنها المؤرخون الغربيون المسيحيون أنفسهم.

وهكذا، لم تكن صيحة البابا إيربان الثاني في مؤتمر كليرمون عام ١٠٩٥ بالدعوة إلى الحروب الصليبية إلا محركا لعوامل لم يكن هو نفسه مدركا لها. ولكن التعبئة والإثارة التي رافقت الحملات الصليبية في تلك الأزمنة كانت قوية مستمرة في الغرب إلى درجة أنها حركت الأطفال هناك، وهكذا سجل عام ١٢١٢ حملة الأطفال التي انطلقت من فرنسا وألمانيا إلى الشرق، كما أثارت الفقراء التعساء فزحفت نحو فلسطين حملة من الرعاة.

الدين وسيلة للحشد

ليس هناك وتر أشد إثارة من الوتر الديني حين يستخدم للتجميع والحشد. وذلك ما قصده جورج بوش الثاني ثم نفاه.. وما نادت به السي إن إن وما زالت تنادي.. وما تعلم الدول الأوروبية حقيقة ما وراءه، ولكنها مع ذلك تعرف أنه موجه للعوام المصفقين الذين لا تتوفر لهم معلومات كافية يفهمون معها ما يكمن وراء الشعارات السياسية من صفقات وعائدات منتظرة.

في حرب الخليج عام ١٩٩١ جثمت القوات والأساطيل الأمريكية والبريطانية على صدر الدول العربية الخليجية، وحصلت الولايات المتحدة مباشرة على مكانة المتصرف الحقيقي الوحيد بنفط المنطقة، وضمنت كذلك لبنوكها السيطرة الدائمة على عائدات العرب منه. أما الآثار غير المباشرة على الأوروبيين واليابانيين فهي أوضح من أن يتجاهلها هؤلاء الحلفاء الألداء. لقد أصبح في يد الولايات المتحدة وحدها سلطان التوزيع والسيطرة على الأسواق والأسعار، أي أن مغزى نشوء الاتحاد الأوروبي المستقل عن الولايات المتحدة أصيب بالتآكل لحساب سيطرة أمريكية متعاظمة.

ويفهم الأوروبيون جيدا اليوم أن الحملة الأمريكية الجديدة التي ترفع شعار الانتقام للثلاثاء الرهيب في نيويورك وواشنطن، تريد أن تحقق أهدافا تختلف عن الأهداف المعلنة، فليس احتلال أفغانستان، ولا قتل بن لادن ورجال طالبان، هو الهدف المنشود من حشد حاملات الطائرات والبوارج ومئات الطائرات وآلاف الصواريخ ذات الرؤوس المختلفة. فإن أقل من ذلك بكثير يكفي. وإن إعلان الرئيس الأمريكي عن مواصفات (أول حرب من حروب القرن الحادي والعشرين) يظهر بوضوح أن الولايات المتحدة مصممة على إتمام سيطرتها على موارد العالم كله، وعلى مقدرات وحصص وأنصبة الدول المختلفة. أي أنها ماضية قدما في العولمة على نحو يجسد فكرة الحكومة العالمية. فقد حدد بوش الزمن الذي ستستغرقه هذه الحرب بأنه عشر سنوات. وقال إن لبن لادن فروعا في ستين بلدا. وتلك مدة زمنية كبيرة فوق مسرح مكاني واسع، ومن الصعب تصور أن مثل هذا الزمان وهذا المكان سيكونان ميدانا للقيام بعمليات تستهدف بن لادن وطالبان وحدهما، مما يدع مجالا للافتراض أن العمل سيجري في مشروعات الولايات المتحدة لإعادة رسم خريطة المنطقة، بشطب دول وإنشاء دول وإدماج دول بعضها ببعض، وهو ما ظهر أول مرة في فلتات لسان جورج تينيت رئيس السي آي إيه في مؤتمر قمة كامب ديفيد عام ٢٠٠٠ حين قال في معرض كيل التهديدات للرئيس ياسر عرفات إن "منطقة الشرق الأوسط بشعوبها وحدودها قابلة للتغيير " (!).

الغنائم والأسلاب

يلوح بوش للأوروبيين بأن أنصبتهم من غنائم الحملة الجديدة رهن بمدى المساهمة في تحمل النفقات والتكاليف. ولكن أوروبا الموحدة كانت تتطلع إلى شيء مختلف. أما روسيا التي وقفت في البداية موقف العزوف عن المشاركة في الحملة العسكرية وعن السماح باستخدام أراضي طاجكستان وأوزبكستان فقد غيرت موقفها لسبب غير مفهوم، ودفعت تحالف المعارضة الشمالي وقوات عبد الرشيد دستن لخوض المعركة لصالح الخطة الأمريكية، ولعل روسيا تأمل من وراء ذلك أن يكون لها نصيب عندما يجري تقسيم المنطقة الذي بدا لها أنه قادم في الطريق. وهذا هو حلف الضباع التي تشم رائحة اللحم الفطيس.

ولا يعرف أحد ما الذي دار بين وزيري الخارجية الأمريكي والصيني مؤخرا، ولكن من المؤكد أن الصين معنية بما يحدث في تلك المنطقة التي تعد على الصعيد الاستراتيجي بوابة من بواباتها الغربية. غير أن الصين لم يكن يسعها، كما لم يكن يسع غيرها،أن تتحفظ بقوة حيال التصرفات الأمريكية المرتقبة بينما كارثة نيويورك وواشنطن شاخصة للعيان وجثث القتلى تحت الردم والركام.

ولكن جميع الذين يتحفظون سوف تزداد تحفظاتهم مع الوقت. فالحرب التي ستنشب لن تكون لعبة. والأسلحة التي ستستخدم فيها سوف تهز جنوب آسيا كله. وإلا فلن ينطبق على الحرب وصف أولى حروب القرن الحادي والعشرين، أي الحرب التي ستستخدم فيها أحدث الأسلحة المخترعة حتى الساعة. أضف إلى ذلك أن التحركات الجماهيرية في باكستان وغيرها، وربما في الدول الإسلامية جنوب روسيا، قد تفجر حروبا وانتفاضات لا تسهل السيطرة عليها.

الهم الإسرائيلي الأكبر

وتتوقف أمور كثيرة على نوع التصرف الأمريكي ومداه وحجمه. وإن كان نوع الحشد العسكري الأمريكي حتى الآن ينبيء كما قلنا عن شيء أكبر كثيرا من مجرد ملاحقة مجموعات من المقاتلين المعادين للولايات

المتحدة. فهذه القطع البحرية والجوية، وهذه الصواريخ، وهذه التسهيلات المطلوبة من الدول، وهذا المدى الزمني المحدد للحملة، كل ذلك يوحي بالعمل ضد دول وكيانات وشعوب، لا ضد مجموعات قتالية تتشكل من أفراد كثيرين أو قليلين.

وما تتحسب منه المنطقة هو أن تكون الحملة الأمريكية في خدمة الاستراتيجية الإسرائيلية التي عبر عنها آريئيل شارون قبل حوالي ربع قرن عندما قال إن المجال الحيوي للاستراتيجية الأمريكية يجب أن يمتد حتى باكستان وأفغانستان شرقا وأن لا ينحصر في الدول العربية المحيطة بإسرائيل. وآنذاك كانت الإشارة إلى دول العالم الإسلامي في آسيا إشارة مبطنة، أما الآن فيبدو أن كل ما كان الإسرائيليون يتحفظون من الحديث عنه صراحة صار مباحا دون حياء.

وما يعتقد معظم المراقبين في المنطقة أنه كامن في النوايا الأمريكية هو استفراد الدول القوية في المنطقة، كل على حدة لتدمير قواها ومصادرة تطورها النووي (وذلك هو الهم الإسرائيلي الأكبر)، بينما الدول التي لم يحن دورها في الطاحونة منتظمة في الحلف الأمريكي ضد الأخريات. فما دام في الولايات المتحدة من يعطي شارون الحق في اغتيال الفلسطينيين يوميا، ويجد له العذر في قصف المدن الفلسطينية بطائرات أباتشي وإف ١٥، ولا يتذكر شيئا من أبجديات الصراع العربي الإسرائيلي وتاريخ القضية الفلسطينية فإن المؤامرة لن توفر أحدا.

وقد يحتاج الأمريكيون حاليا إلى تهدئة الجبهة الفلسطينية الإسرائيلية، بغرض قطع الطريق أمام حجة الدول العربية والإسلامية إذا لم تدخل الحلف متذرعة بما يحدث في فلسطين. بيد أنهم لن يلبثوا أن يوقعوا الأذى الأشد بالفلسطينيين، لأن فلسطين هي المستهدفة أولا وأخيرا!